مجلـة الحكمة للدراسات التربوية والنفسية
Eissn :2602-5248 Issn : 2353-0456
المجلد 4 / العـدد: 2 (2016)، ص 95 - 110

لسانيّة اللغة الإنسانية -قراءة ابستيمولوجية في سيكولوجية الكلام-

أ. عبد القادر مصطفاي
جامعة ابن خلدون -تيارت- الجزائر

تمهيد:

كدارسين لفلسفة العلوم الانسانية؛ لعلنا نرى أن طبيعة الظاهرة اللغوية السايكولوجية (على مستوى البنية السطحية والعميقة) تحمل من عناصر الواقعة اللسانية الشيء الكثير. هي شهادة تمنحها إيّاها القراءة الإبستيمولوجية للطرح الذي نستعرضه مع تحليل للمنوذج النفساني بمقاييس مناهج اللسانيات الـ " البنائيتيّة". نتناوُل بالدراسة المستفيضة جملة المقولات " المفاهمية " الأساسية في فلسفة لسانيات السيكولوجيا التي صاحبت الأساليب " الابستيمو- منهجية " في علم النفس؛ الذي هو وليدُ أسئلة " الدلالة " بشكل من الأشكال برغم العوائق الذاتية وبرغم تعدد الميادين.

لا نزيدُ عن ربط تحاور بين اللغويين؛ و فلاسفة علم النفس وبينهم وبين الإبسيتمولوجيين ولا مانع من التطرق لعلائق الذات باللغة الإنسانّية، ومن التقصي عن رُؤى مستجدة وقد بقيت مغمورة و مُبعدة عن وعي الباحثين في الدراسات العليا عندنا على الأقل ! . لم نكتف بتثبيت الملاحظات النقدية المعلنة عن معنى الـ (معنى) نفسيّا وعن الجزء اللفظي من المعنى؛ بل عمدنا إلى إقحام نوع من " الموقف " الشخصي المقتضب؛ والمُلتزم، بين ثنايا التحليلات والاستخلاصات الختامية في هذا المقال. نطرح سلسلة من الإشكاليات - بحسب الفقرات - كما تحملها عناوينها :

قبل " اللسانيات "- قبل " السيكولوجيا "- كيف نُظر لنظرية الذات واللغة في فلسفة النفس العامة ؟ الأسُس الوجدانية للغة اللسانية؛ كيف أمكن للمهتمين التحوير الإبستيمولوجي لها؟.ما هو الموقف المُترتب عن تعليل فطريّة لغة النفس البشرية فسيولوجيا وسيكولوجيا ؟ إلى أي مدى نستطيع تحليل ابستيمولوجيا العبارة اللسانية دلالة مبنى ومعنى ؟ ما الغاية من مناقشة الآراء " النقديّة " ؟!

فلسفة السيكولوجيا:

فلسفة السّيكولوجيا تقدمُ التّفسير النفساني وحلولا نظرية لمشكل الذات ؛ انطلاقا من ماهية النفس. طبيعتها. و ذا مصيرها؛ مع إيلاء الإعتبار للأسئلة التي كانت مدعاة للتأمل العقلي للوجدان وبناءًا عليه يُقدَم التفسير السلوك الإنساني والملاحظ هو التّحول من دراسة (الروح و الأمل) إلى (تتبع اللغة و العمل) مع التركيز على وظائف العقل فالذهن المجرد هو الذي وضع - أولا - مبادئ لعلم النفس في موضوعات كالتربية - مثلاً - دون إغفال أثر المشاهدات التي تُرى على الفطرة الطبائع البشرية في شتى صورها؛ ولطالما كان الآداء اللغوي في دائرة اهتمام فلسفة النفس - وحتى فلسفة الفن الجمال أيضا- من خلال تحليل وتأويل الجمل والعبارات وحتى بعض الإشارات بما تحمله من حقيقة ضمنية؛ وإن كانت تظل مجردة في ذهن صاحبها من حيث المبدأ.

عند رجل ك ديكارت معلوم أن " الفكرة الصادقة " هي " الفكرة الواضحة " في الشعور وكل تميّز هنا يكون بفعل اللغة وألفاضها الجارية على الألسن وهي التي تتألف منها الحقيقة (كلها أو بعضها) و هكذا فإن اتخاذ الخبرات الشعورية أو الواعيّة كموضوع للغة حُمل على أنه يتسم بوحدة الفكر الذي هو التركيب الرمزي على أنه المؤدي " لحُسن قيادة العقل والبحث عن الحقيقة في العلوم "[1].

... إن التّساؤل عمّا لهذه الفلسفة الأخيرة من مبرر أمام فتوحات كل علم-إنساني متخصص؛ نقصد علم النفس المستقل و المتخصص على وجه التحديد؛ هو حقا سؤال ينطوي على إحراج ! . ... منذ البدايات الجديدة علاقة اللغة بالسيكولوجيات - كما سيرى دو سوسيور- لها وجهان هما أساس التقاطع اللساني بين " الكلامي " و" اللساني " فيما بعد تتبلور دراسات لمستويات التحدث على مستوى البنية التوليدية ذاتها ويؤكد اللغويون الكلاسيكيون على الحقيقة التي مفادها أن بين الأفكار و القوالب نوع من الإتحاد الذي يجعل اللغة نسقا عضويا إنه الإتحاد " المورفو-سيكولوجي ". فلنأخذ أعمّ مثال على ذلك؛ نحن نرى أن التّحدث يُضيف للسلوك الجسدي المعنى " الأكسيو-أخلاقي " استناد للوقائع ... يمكننا أيضا أن نأخذ بأقوال فيلسوف من حجم جاك دريدا[2] عن الكتابة الفردية كتسجيل داخل فضاء " الاختلاف " الوجدي أو " الوجداني " منددا بامتياز الكلام على حساب

الكتابة! أكثر من ذلك نرى صورا عديدة للحدث اللساني مع شيء من مطابقة الفكرة لدواخلنا .

النفس جوهرٌ ميتافيزيقي - لا ريب في ذلك - عند الفلاسفة ' لذا وجدنا شيئا من التنقيب في الأصول العميقة للذات البشرية - ومع الأكثرية منهم - كانت أكيد مدار تأملات تخمينية ليست بقريبة من موازين علم النفس اليوم لكنها ليست عديمة المعنى بالتأكيد فحدودُ ما نعده تحليلا نفسيا كانت بالفعل " ما ورائية " الإلحاق . لكن ثمة تعبيرا عن المفاهيم في رموز لغوية مُوسعة مع تنشيط الـ " مكون " الدلائلي التحويلي؛ تتعلق باللغة عينها على أنها نظام دلالات معبر عن أفكار بالنشاط النفسي هذا المعنى بالضبط يُدخل اللغة لاحقا في صميم أبحاث " علم السيكولوجيا " عندما يعلن هذا الأخير استقلاله عن الفلسفة الأولى! .

دورُ التجريد - تجريد المشاعر في وعاء لغوي - في التفكير الفلسفي النفساني مهم لا يقل أهميّة عن تجريد علاقة أعطيتُ لـ صلات الأفكار بالكلام ووظائفه. هذا يميطُ اللثام عن وجهين على التتالي - بالنسبة للنقطتين السابقتين - النقطتين هما:

- **الأول:** إثبات حقيقة الأفكار والوجدانيات على غرار الإلمام بـ (كيفية علم علة مشاعر الأفراد من خلال أسلوب التداعي الاستبطاني الكلامي) .

- **الثاني:** إقرار علاقة اللغة بالفكر أو التحفظ عليها (إقامة الدليل - والمثال) وتحليل " الإمّحاء " من عدمه من حيث معناه؛ أو من حيث دلالته إلى عناصره الأوليّة.

إن مُلاحظة الطباع والفرُوق الفردية مكنت من الإجابة النظرية على ما يعرف بـ " التحليل التكويني للأفكار " كما يدعوُنا إليه حديثا " بياجي "[3] وحتى التجريبيين كمحاولة لكشف سرّ النفس الجوهر الروحاني كما أطلق عليه " الجرجاني "[4] لا سيما عن طريق الحدس؛ والحدس هنا حدسٌ نفسي كاطلاع مباشر من النفس عن الصور الحسية أو النفسية وكشفُ الذهن لبعض حقيقته دون واسطة سواء ارتبط الأمر بالحس الظاهر أو الباطن وترجمته باللغة المحكية.

الذات الانسانيّة - واللغة الألسنيّة:

بإيجاز مورفولوجية أو بنيويّة الكلام كان يُنظر إليها إلى غاية انطلاق أعمال المدارس التقليدية في فلسفة علم النفس العام على أنها تعكسُ الوعي؛ وحتى ما

يشبه اللّاوعي في صور أفعال تقريرية تحركها طاقة شبه مثالية أو" موناداتية " حتى .

قديما لم يكن هناك بحث في المؤثرات والدوافع التي تقف وراء سلوك الإنسان؛ وعملياته العقلية كما تفعل السيكولوجية الحالية؛ أما نظرية الذات واللغة عند فلاسفة النفس المتقدمين فقد ظلت بدورها جدليّة في أكثر توصيفاته فلا علاقة ضرورية بالكليّة بالمنظور الميتافيزيقي بين الطرفين و عليه صوتُ السلوك اللفظي يعكس فحسب الأسباب البعيدة للاختلافات اللسانيّة حتى على سبيل المحاكاة أو المجاراة (عند اليونان أو العرب) إلا أن فلاسفة النهضة أتوا بأفكار جديدة فالجسم تجتذبه " مونادا " كالروح كما فهمها لابيبتز[5] ولغة الجسد المادي عبارة عن تعابير تلكم الروح وقد يكون هذا تأصيل لموقف " لاديكارتي " آخر - فلسفي المزاج بالطبع - ينحلُ بدوره بـ " الفكر اللغوي" داخل المذهب وأسواره. نعني " الفكري اللغوي " منه على شاكلة الفلسفة الإبستميّة وقد سبقته.

بدعوى تحرير المظهر اللغوي المغموس في ما خلف الجسد (في ذات الجسد) فإن أفكارا وأحاسيسا تكونُ اللغة وسيلتها تُحرز بالقوة وبالفعل استحضارا لما وراء اللسان - فما بين الأفعال - والمعاني و ما بين الذهن مساحة يملؤها " الشغوُر" ورغم وجاهة وجهة النظر هذه عند بعض من أصحاب الفلسفة المتأخرين، إلا أن حُجج المناهضين لفلسفة النفس كانت عملية حقا [6] تبعا لنشأة فروُع السيكولوجيا بعيد استقلال علم النفس مباشرة واعتماده على نوع من اللغة " التفريغية " على اعتبار التنفيس عن مكنونات الإنيّة بمعناها السيكولوجي لا الفلسفي غير أن الـ " تشومسكيين " فيما بعد رأوا أن التنقيب في أصل اللسانيات النظرية؛ وتتبع جذوها يبين أنها حقا ذات صلة وطيدة بفلسفة العمليات العقلية.

جميلٌ الحديث عن عضوية فيسيولوجية و حتى عصبية متعلقة بآداء؛ ثم حتى بفهم معاني كثير من الإشارات اللغوية لعلها كانت خافية حتميتها الفيزيقية عن مبدأ التفسير المتفلسف لعمل اللسان الخارج من رحم الأنفس الآدمية تماشيّا والمبدأ الذي ينصُ على إعطاء الدور الأقوى والأعلى للذهن؛ وكل تجسيم للمكنونات الضمنية للأنا متعلق بظروف وحالات خاصة جداً ′ و مشخصة لا تُعمم؛ إنها مرتبطة بمقتضيات الفعل - وبـ ضده - ولا حالة شبيهة بأخرى فلا داعي للتعميم إذن

(...) . وبالتالي فكل إدراك لـ علاقة الألفاظ والمعاني لا يفهم بمعزل عن فاعليات ذهنية كالذكاء. والإبداع . والتخيل كما يحدث - في كل الأزمنة مع فعل كالقراءة ... وما يصاحبها من تمثلات - والنتيجة هي أن الدراسة - وإن لم ترق لدى البعض لمستوى الدراسة أصلا - المتقدمة للكلام كانت في جانبها الأكبر" معقلنة " (نلمس ذلك متى ما وضعنا أيدينا على مقتطف يتطرق للموضوع ، في جل مصادر الفلسفة الكبرى).

كان علم النفس كما قلنا قد وُلد من رحم الفلسفة؛ وكان الفلاسفة في الحق هم علماء النفس من قبل. وكانت تُرى اللغة من الداخل - ولم يُرد لها أبدا أن تحل محل الفكر - ذلك أن ديكارت - وغيره - أقام بناءه الإبستيمولوجي المعرفي كله على أساس الفكر وإن وجد " الحل " في " عبارة لغوية "؛ ألا و هي " الكوجيتو " الشهير، فكيف لم ينتبه أحد قبله - من الفلاسفة - لذلك ؟! .

ليس المقصود الإجابة على هكذا سؤال يهم تاريخ الفلسفة " التليد " إنما المرادُ هو الوقوف على طبيعة المفهومين الفلسفيين الجديرين بالتركيب والتحليل؛ وهما الـ " أنا المفكرة " والـ " أنا الموجودة " . فما ماهية التعبيرين الأخرين باللسان؛ إن لم تكن اللغة هي خادمتهما الوفيّة ؟ ! وكأن وظيفة الكلام ذهنية منغمسة في الواقع ومن ذلك أن التصورات النّفسية حول موضوع مُعين تحكمها مجموعة البُنى الذهنيّة المُتحكمة بدورها في الحديث المتكلم به وكذا في لحظات التأمل الصامت العابرة للأوقات الصعبة أو الحرجة (يصيرُ هو - اللاّكلام - كحافز ثان للتدبر العقلي).

العقل اللغوي:

لعل ما ذكر آنفا متعلقٌ بالتعريف " الما بعد منطقي " بين " القضية و" العبارة " - عند فريق من فلاسفة الرياضة - كما هو الشأن مع ألفرد تارسكي[7]. ذلك أن دالة القضية تعني إنتهاء ذلكم المعنى (العام) مع نهاية الميل الشخصي. إنها تعكس كذلك عمق " القطع " بين الفكرة التي لا وجود لها والتي لها وجود مع إزاحة العبارة المفرطة في إغفال الوصل بين الشطر المنفعل والشطر الفاعل و ليس من اليسير فهم ذلك ؛ غير أنه يمكن على منوال الملاحظات السيكولوجية التي دونها المطورون مطوّر لما يعرف باسم " السيمانطيقا المنطقية " تقدير الموقف إياه.

مع تبلور اللسانيات الحديثة - موضوعا ومنهجا - أضحت الحاجة لمعطيات فلسفة علم النفس - وما قبل علم النفس - مُهمة جدا فتلك السيكولوجيا - الأخيرة - من نوعها والتي توصف بـ " الفلسفية " من حيث غرضها - وتعاليها كذلك - قد شكّلت قسماً ٬من الاهتمامات الفكريّة السابقة سيُستفاد منها ولو جُزئيا ... ويحالُ بعضها على توجهات حديثة للفلسفة نفسها على غرار الهرمنيوطيقا[8] " التأويلية " ؛ و لا يتسع مجال الفقرات هنا للتوسع فيها أكثر ! ...

نحن نستخدمُ الحدس كأسلوب فلسفي في إدراكنا للمبادئ الأولى للعلم للفلسفة وللمعرفة لإدراك خبايا النفس بالتحديد مهما بدت للمتلقين المبتدئين بسيطة؛ أليس كذلك ؟ إالرؤية العقلية المباشرة نافذة، والمدرك هو الذهن في هذه الحالة " التجاوزية " للسان الذي يأتي دوره بعديا ٍبعض الشيء ! .

إذا " كانت المحادثة كما يوجهها -سقراط- هي الواقع الأساسي في هذه الحياة "[9] لأنها قوام النفس الناطقة؛ فإن أسئلته وطريقته التوليديّة كما نقلها أفلاطون أكيد أنها تنتقل لجمهور الفلاسفة عبر العصور مع الإقرار الذي نجده في فلسفة النفس - بمضلة التحليل الغائي - كونه يقوم على مجموعة الافتراضات دوما مع التبرير ؛ والتبرير- على ما يبدو- هو التالي :

- إن العقل يُثبت تصوّرات / أحكام عن العالم الخارجي انطلاقا من العالم الداخلي لتحاكيها تراكيب اللغة والمنطق بجارحة اللسان. قد يقول قائل أنه تعرضت مدارس علم النفس في مناهجها التعليلية لشيء من ذلك في مخاطبتها للذوات وللحوادث النفسية (منهج مدرسة الجشطالت[10] " المجالية " في تقييمه للتعلم الإدراكي مثلاً ..أو تحليلية مكتشف الليبيدو[11] فيما تعلق على سبيل التمثيل دائما بحال مصاحبتة للذاكرة ألا وهي النسيان " المرضي " بالخصوص فالذاكرة تحتفظ بكلمات ذات معاني قوية؛ لكن سرعان ما تترنح بسبب تلك الحالة المرضية أو ما شابه من عرض. على العموم؛ الإدراك يبقى تذكر للمعنى بتأمل كل ما هو باطني ٬ و ربطه بما هو خارجي) .

- فضلا عن ترتيب القضايا وبناء الاستدلالات فإن العقل كـ " عقل " هو مصدر الحياة ومبدؤها و هو موجه كل الظواهر النفسية بشكل أو بآخر؛ وعلى اعتبار أن اللغة تفتح له أفاق التحرر من عدميّات بعض تلك الظواهر على قلتها فإن ذلك

يستلزم أن الإنسان " عقل " وأن اللغة " حياة ". ما نريد بيانه أن تفاعل الدال مع المدلول عليه أو تفاعل (الإشارات مع الأفكار) بما يُنتج التنبيهات التي تقود سيرورة الوجود " الموجود لسانيا " ولا يكون ذلك من دون التأكيد على العلاقة التفاضلية ما بين الشطرين المتقابلين - وإن كان العمر الزمني العقلي أكبر من العمر اللغوي - و هنا نشير إلى أنه (قد يكون -على فكرة- العجز اللغوي الكلامي أفدح من العجز الذهني التفكيري !) .

في الوقت الذي نظر فيه لـ علاقة الجسد بـ اللسان على أنها مشوهة السّمعة - والجسد بذاته تعبير للروح - كان ذلك وهماً كبيراً بالحقيقة؛ لأن علاقة الجزء بالكل هنا كانت على المحك و في الوقت الذي تسود فيه ظنون مفادها أن هذه النظرة قد ولت -تجيء السلوكية - واطسون[12] في أبحاثه أو غيره - بفكرة تشابها - لعلها تليق بمن ألفها - فهو يرى مثلا أننا نفكر بكل بدننا وإن كانت أعضاء الكلام تلعب الدور المؤدي الإخراجي لهذا التفكير أو ذاك المعبر به لسانيًا حتى عن معاني " المعاني " العقلية، المطلقة، أو العامة ! .

وقفة مع - هنري لويس برغسون : آراؤه في عبارات " النقدية الفلسفيّة " لسيكولوجيا اللغة:

يُعتقد أن برغسون [13] قد مال إلى انتقاد كل تعليل علمي أو رياضيّاتي للظاهرات النفسانية وعالج بأسلوبه التحليلاتي " العميق " مُشكلة التّعبير عن الكيفيات الباطنية وعمّا يُقوم بينها من تشابهات بتعبيرات معلبة أو " مبسترة " - على حدّ تعبيراته - تكادُ تكون غير يقينية ... وقد أقرّ بالقول " نحن نقدر على المخاطرة (اعتباطا) من دون خشية في هذا الميدان المستهدف للوقائع البسيكولوجية "[14]. الاهتمام بهذه الواقعات الأخيرة - وهنا نقتبس عن مؤلف " الكتابات والأقوال " والكلام لبرغسون دائما - ربما " لأن الاستفهامات (في هذا المسعى) تنساق لتغدو فلسفية (محضة) "[15]؛ وإذا ما قوُرنت بأسئلة نظرية النظام اللساني المغلق - وقد أتت بالطبع قبلها - فإن مكانة الحُجة البسيكولوجية تفهم لما تنقلب على اللغة فقد قدم برغسون - و ليس من قبيل التّهكم - سلسلة انتقادات لاذعة للغة في أغلب مؤلفاته منها أن (اللغة مغلقة - نفعية - قوالب مجمدة للمعاني ..)؛ وأنها تمدنا بتعريفات صعبة للأمور... مع وجود أدوات تعبيرية أخرى ذات طابع حيوي

تمتاز بعمق رسالتها ؛ و كذا ديمومتها أكثر من الأداء اللساني كحركات الإيماءات الإيحائية أو أعمال الرسوم ′ و الفنون التشكيلية... ! .

لمّحنا آنفاً إلى أن ألفاظ اللغة الجارية تكاد تخدعُ السّيد (روني ديكارت) - أو هكذا ′خيل لهُ - فضلًا عن الحواس بالطبع و العقيدة المترسخة في أذهان العامة قد لا تنتبه إلى ذلك فقد استقوها واستساغوها بالعادة ! . حتى و إن كانت اللغة ضرورة عقلية فإن الذهن يتناول بها قضاياه ؛ غير أنه يحتويها .. و مهما يكن فإن استعمال ألفاظ اللغة بطريقة اصطلاحية لكي تعبر عن معنى ما يجعلها ربيبة الخيال إلى حدّ تجريد تمثلات القيم العليا كـ الخير الأعلى، العدالة، والمساواة ... وغير بعيد عن ديكارت شخصية من طينة المناطقة الوضعيين و قد ظلت تعزو مشاكلات الفلسفات الأولى - وحتى السيكولوجيا الكلاسيكية - إلى سوء استعمال " لوجيك " اللغة كما في " الرسالة المنطقية الفلسفية " وأحيانا أخرى تُعزى إلى سوء فهم النحو أو الاستخدام اللفظي لـ اللغة / اللعبة عند فتجنشتين نموذجا[16] !

سيميوطيقا إبستيميائية :

علينا أن نتساءل - في هذه السانحة كذلك - و بشكلٍ خاص عما إذا كانت الـ " لامعاني " المُمكنة مُرتبطة بذالكم الشكل المنطقي للقضايا - مع برغسون- أم متعلقة بحالات نفسانية متفردة كـ " هلامية " عدم معرفة المتحدث بمدلول الألفاظ . هذا يُعطي الباحث المعاصر قدرة على النقد الإبستمو- نفساني مع محاولة بيان الأصل اللامنطقي - ولكن النفسي - لها كقضايا تحتكم لـ (المبدأ التفسيري لروابط لفظية غيرة بينية البناءات البنيوية !) .

... إلى ذلك استحالت المعرفة الميتافيزيقية لدى ايمانويل كانط إلى معرفة نقدية وهي في جزء ليس باليسير منها حقيقة نفسية مع انتمائها أحد العالمين (الواقعي والميتافيزيقي) وليست الاستحالة (التحولية) المقصودة منطقيّة بالمرة كما يرى المذهب الوضعي . سيتعزز ذلك مع انكشاف قوانيين الحياة الفكرية والنفسية؛ إذ يتصورُ أنصار الحتميّة البسيكولوجية أن البواعث اللسانية واقعة تحت تأثير القرار والفعل اللغويان، صوتا، شكلا،. وتركيبا،. وتخريجا؛ لاسيما المعاني الجزئية الخاصة.

زوّار الفلسفة المفتوحة على الآراء النفسية - إن صحّ القول - يقبلون ببعض الحقائق كالقول بأن ((الطفل يتكلم ، قبل أن يفكر))[17] لكنهم لا يلتفتون للبعض الآخر كالزعم الأفلاطوني الغابر القائل بأن النفس كانت موجودة في عالم علوي روحاني قبل حُلولها في الجسد !... ثم إن نمط من تلك الفلسفة متطرفٌ إلى الحدّ التشاؤمي المتناقض - ظاهريا على الأقل - كمن يتحدث (في مثال لعبة الورق)[18] عن المظهر المثالي الـ " ضجر " مُجسدا بدوره في لغة الالتزام العدمي " السالب " أو أنها حاملة للقلق. إن مصادرات العقل اللغوي المتمثلة في المسلمات القبلية الضرورية للحوار ؛ ليس في مقدورها إثبات حرية الإرادة الفردية للسان بواسطة جملة عباراته السيكولوجية المنشأ ولا حتى بطريق التعالي بها بواسطة الكلام المعلن " تنظيري " أو تجريدي لأن هذه القضية ليس لها تلك الصورة المنطقية دوما؛ ولأننا لا نقدر أن نجيب عن ما معنى " المعنى " فيها أصلا ؟! ..

في الحقيقة لا وجود لـ " أنا " تمثل الذات لها وجود أو حضور خالص؛ وفاعل معا في هذا العالم ؛ وإن كنا نقدر هذه المرة أن نتساءل عن كيفية تكوين معرفة مرتبطة ارتباطا وثيقا باللغة دون أن ترقى بها بالضرورة لمصاف حقيقة " فلسفة " ؛ فالفلسفة هي " وعي الوعي " كما يُراد لها على أن كل ميتافيزيقا معنوية - ماضية أو مقبلة - هي تأمل في البُنى " الماهوية " للنفس البشرية منذ أيام الإغريق بما فيها ميتافيزيقا فلسفة العلم المعاصرة أو الإبستيمولوجيا (عند راسل نموذجا هي مثالية علمية) بل إن باشلار لما يتكلم عن " تكوين الروح العلمي " إنما يقدم مساهمة غير مباشرة في ما يمكن أن نطلق عليه (التحليل النفسي للمعرفة الموضوعية) على شاكلة الاستقصاء الإبستمي حول الشروط العقلية التي تعيق عكسيا مسيرة الفكر العلمي في تقدمه إلى الأمام... بانتظار الانبثاق الحيوي الجديد لتصور متجدد للعالم من أحداث محايدة . نفسية و اجتماعية .

بعيداء عن تفسير الكلام فيزيولوجيا[19] تقوُم فلسفة برمتها على تصور " سميوطيقي" ذو خلفية سيكولوجية غير خفيّة وأهداف " إبستميّة " غير معلنة؛ على شاكلة نظرية (الأفعال الكلامية) بين فلاسفة اللغة المعاصرين ؛ دائماء من خلال الأشكال الأكثر اكتمالا في اللغة نفسها أي تأسيس مفهوم " المعنى " على أرضية أكثر علميّة وعلى رأس الفكرة ذاتها الوعي عينة باعتباره مجموعة من

الإحساسات و منه ضمّها - أي هذه الأخيرة - لتمثلات تجعل من التكلم الأساس العلني لها اعتماداً على حدودها اللفظية عند تقديمها لأي تفسير سيكولوجي وإن كان هذا الحُكم عليه ما يقال؛ لما ؟ لأنه قد يوصف الأمر كله على بعضه بـ " الاحتياط ضمن (المخزون) اللغوي ..."[20] الموسوم بالرصانة التي تستمد من دواخل لا نهائية؛ إذا ما أردنا أن نوفق في فهم مقول قول (الاقتباس الآنف) فإنه لابد لنا من أن نلحقه بجملة مقتضبة مركزة هي " إدارة التعالي" [21] وهي هُنا تعد بمثابة الجواب البعيد ظمنيا - في نظرنا على الأقل - عن منطوق تلك العبارة؛ ولعل في ذلك شيء أو نوع من "التحديد" لقيمة المعنى الوجداني قبل تحديد معنى الحقيقة في صورتها كما تبدو ملتبسة مع ذلك الشكل الخارجي!.

إن القدرة الفلسفية على النقد الابستيمولوجي للأفكار السابقة لابد أن تنطلق من واقعة ميتافيزيقية واضحة وهي أن اللغة هي الكمّ المتعالي الأول. هذا ما يجمع عليه الفلاسفة الأصلاء .. وعلى ضوء المستجدات التي حملتها العلوم الإنسانية - كما هو الحال مع نمط من سوسيولوجيا مرتبطة أساسا مع سيميوطيقا الواقع اللغوي للمتكلم المشار إليها -فإن إعطاء مفهوم للنفس اللغوية الإنسانية لم يعد من اختصاص السيكولوجيا وحدها؛ فالملكة اللسانية لها بيئة تنمو فيها الشخصية اللغوية فهي من أكثر المفاهيم تعقيدا وتركيبا في "علم النفس " - و حتى في " علم الاجتماع " - المعاصرين والبعضُ ممن سيطرت على أبحاثهم هذه (الوحدة) الدراسية اهتموا بذات الشخص ككل ؛ محاولة منهم لإجمال الردود بالأقل على ثلاث أسئلة : كيف يكتسب - أو يكسب الإنسان - اللغة ؟! كيف يفهمها. وكيف يهضمها؛ أي يعي معانيها؟!. الميسرُ من تلك الردود يميل إلى تتبعُ مراحله نحو الشخصية- والتي تحتاج في الواقع كل مرحلة منها إلى سنيين عدة - (من اللاتمايز ... إلى النضج المسؤولياتي)؛ وهو شغلٌ اقرب إلى تتبع السلوك الجمعي - دون إهمال الجانب الذهني منه - بُغيّة الإحاطة بـ " تولدات " عبارات الجوانب الذاتية والموضوعية (الوراثية منها أو المكتسبة) بطريقة مدروسة ومعقولة يمكنُ لـ اللسانيات الآنيّة أن تستفيد منها بصورة من الصور؛ فتأثير السيكولوجيا على اللسانيات سيتجلى في بعض افتراضات علوُم الدلالة (العلاقات "السوُسيوريّة" الترابطية - مثلا - هي نموذجا) .

موقف بياجي ((التكويني)):

إليكم مُلخص ما في نظرية بنيوية[22] التي أسّسها " جون بياجي " ذات النزعة التكوينيّة الواضحة:

- انطلاقا من مؤلفاته الشهيرة على وجه الخصوص وحتى من خلال غيره من المصنفات يبدو أن فيلسوفا ، مثل بياجي بنى بحوثه على مراحل، لا تعدو أن تكون فرضيات تعقبها نتائج؛ فأين تكمن تلك القيمة التي تعطى لها؛ وهل القضية كلها " التربوية - النفسانية " فلسفة أم علم ؟ أم ستندرج ضمن الدراسات اللغوية الإنسانية ؟ .

- سعى جون بياجي لتجاوُز موقف التجريبيين و الفطريين من خلال الطابع " الترابطي " الذي انتبه إليه بين ما هو "بنيوي" وما هو " تكويني" نافيا فطرية الأولى مثبتا اكتسابية الثانية منتهجا زطريقة ابستيمولوجية تتطلب دراسة المعارف في إطار تكون لبناتها الفلسفية النظرية تثبيتا لدور العمليّة الكلاميّة الواقعية من خلال عمل فعل اللغة المحوري (بالنسبة لبقيّة الأعمال) ومنه فإن الحديث الذي يغوصُ في موضوع نشوُء المفاهيم وتكوين المعاني وطبيعتها ومكوناتها الأساسية وتطبيقاتها العملية في الحياتين النفسية / الاجتماعية يعطينا تفسيراً لعملتي الفهم - التعلم كلتيهما .

- ابستيمولوجيا علم النفس كما تُسمى من طرف النقاد عند بياجي ذات طبيعة بنائية إذن وهو العنوان الأنسب لكي نعتد بحلول بياجي . المطلوُب - أولا - فهم مُعطيات التفسير والتحليل النفسي التكويني المزدوج الذي عبر عنه ' دون إغفال تأثير الفكر التربوي عنده ذو الأساس الإبستيمو- بيداغوجي ؛ متخطيا " تأمليّة " ديكارت و" نقديّة " كانط والقيمة المعرفية الإبستميّة في هذا هي الرّوح النقدية للتربية الفلسفية و" اللغوية "؛ ولعلّ هذا ما حفزه - ندرج ذلك من نافلة القول - على القيّام بأعمال تحضيرية كمساهمة منه لـ " إصلاح التعليم " في بلده .

- بياجي يقولُ بتفاعل الذات والموضوع وبأن لغة التفكير الصوري المنطقية وسيلة لإذكاء العقل ضامنة لصحة ولسلامة اللسان. ويرى بياجى كـ " مُحلل " ابستيمولوجي لمعرفة النفس البشرية بأن الجهاز العقلي العصبي النفسي " توراثي "

وأن اللغة متأثرة بعمل "بيولوجيا الدماغ" فيها وإن " كان من الملائم لفهم وجهة النظر التكوينية في بناء البنيات المنطقية أن نتعرف على التأويلات المختلفة التي كانت سائدة في المنطق ؛ عندما كان بياجي يكون يوجه وجهة نظره الخاصة "[23] و أن نقابلها بآرء غيره خاصة أفكار شومسكي .

عن بعض المواقف الجانبية المتداولة نذكر انه معروف أن آلبرت آينشتين - الفيزيائي النسبي المعروف - قد اقترب فعلا من جون بياجي ' بل و إلتمس منه أن يدرس حدس سرعة فهم الطفل وما إذا كان يقتضي تكونه فهما مسبقا للتوقيت أم أنه يشكل بمعزل عنه !؟ .

... وللحديث بقية - في مناسبة أخرى - عن الصلات 9 الموازية ؟

خاتمة :

يمكن أن نقف بصفة مقصودة - وبكل براغماتية - على " استنتاجات " وجيهة عطفا على ما وقفنا عليه بخصوص ما نعدُه وعيا لسانيا مُبكرا بعض الشيء وتتمثل جملها -في الجملة - فيما يلي :

-انشغال فريق من الفلاسفة بموضوع (لسان) النفس ؛ كان انشغالا لغويا بحتا أي أنه (أي الكلام) هو نفسهُ مجموعة تعبيرات توصيفيّة مستندة على خبرة الحدوس المعرفية (لاحظ تعدّد معاني ألفاظ ظاهرة نفسية ما ...) .

- كل تحليلاتنا لـ كيان اللغة و كيان الذات كانت تسعى لأن تكون معبرا عن دالة الحالة أو الدالة الذهنية / العقلية لأحوال الذات وانفعالاتها بغض النظر عن السياق الصوتي - الصرفي أو المعجمي.

- المطلب الرئيسي في تلكم السياقات لم يكن يوما ميتافيزيقيا بالمطلق، غير أنه عاد وأحيا الفهم التحليلي لـ قصدانيّة الكلام - مع فريجه[24] - المُميّزة بين الـ " إحالة " والـ " دلالة "؛ إذ يوصل اللفظ اللغوي بالنشاط السيكولوجي، ومن السّهل إدراك ماهية هذا التصور رغم الاعتراضات على التفسير بالوعي.

- الآراء الفلسفية السيكولوجية إجمالا؛ لا توحي بأن الفلاسفة ليسوا على وفاق مع النفسانيين بل أن أي طرح فلسفي تحتويه اللغة الطبيعية السيكولوجية بغض النظر عن كون أزمة الفلسفة العامة في أحد أوجهها أزمة لغة (علاقات بين كلمات و مفاهيم) .

- على الرغم من استقلال علم النفس عن الفلسفة فقد بقي الارتباط ° قائما بلا شك ؛ على الأقل من حيث ثبات الإجراءات التحليلية المعقدة نوعا ما. فلننظر للغة الباطنية على سبيل المثال لدى فلاسفة الوجد الوجداني (الايماني) ولدى فلاسفة الوجود (كما هو موجود - وكما هو ليس بموجود) و لدى فلاسفة (الوجودية) ! .

- ... أخيرا علينا أن نُسجل مجددا أن فلسفة التربية[25]؛ قضايا اللغة و غيرهما ستؤدي إلى بناء علم نفس تكويني - كما هو الحال مع بياجي - على قاعدة دائرة معارف لا مادية فلسفية قبل ذلك ؛ وكأننا بإزاء تقسيم للسانيات الآتية توجه واحد منها هو بمثابة تفرع لشعبة من شعب علم النفس المعرفي.

هكذا النفس شأنها شأن اللغة في نسقها الرمزي يرتبط فيها دال بمدلول بلا تنازع؛ فالصورة اللفظية كما السلوكية تحتكم لـ القيمة التعبيرية. هذا بالنسبة للنفس "المدروسة" فيما يتعلق بالنفس الدارسة فإنها تفيد في التحول من (لسانية العبارة) إلى (ابستيمولوجية الفكرة)؛ ومنه أمكن وضع إطار نظري لـ علم مبادئ معرفة النفس اللسانية . ثم أننا سنجد دوما فلسفة بين ثنايا نصوص الكتب اللسانية ! .

هوامش ومراجع المقال:

(1)- René Descartes .discours de la ; méthode, ENAG- ED Alger . 1991
" Pour bien conduire sa raison, et chercher la vérité dans les sciences ".

(2)- جاك دريدا (J. Derrida 1930-2004) فيلسوف فرنسي معاصر مولود بالجزائر- الأبيار- متخرجٌ من قسم الفلسفة بدار المعلمين و مُدرس بها . من نشاطاته بحث حول تعليم الفلسفة من مؤلفاته " الكتابة والاختلاف ".

(3)- جون بياجي (Jean piage 1896- 1980) ؛ مُربي سويسري معاصر . فيلسوف و" عالم تربية " .

(4)- الجرجاني (توفي سنة 816 هجرية): مفسرٌ فقيه. وُلد في " طبرستان "؛ ألف الإشارات والتنبيهات - التعريفات؛ الذي ذكره " بروكلمان " في " تاريخ الأدب "أنظر: السّيد الشّريف الجرجاني ، التعريفات .اعتنى به مصطفى أبو يعقوب ؛ مؤسسة الحسنى. الدار البيضاء، المغرب ط1 ، 2006 .... و قد جاء في الصفحة 134 أن " النفس هي الجوهر البُخاري اللطيف الحامل لقوى الحياة و الحس و الحركة الإرادية " .

(5)- لايبنتز (G.W Leibniz 1646- 1716) رياضي ألماني . فيلسوفٌ له تأملات في المعرفة و الحقيقة الأفكار له مؤلف بعنوان " المقال في الميتافيزيقا " أما " المونادا " فهي الحالة التي مرجعها فهو " اللامتناهي ".

(6)- بل كانت لهم محاولة جريئة هي بمثابة الهجوم المعاكس ، تماماً لإلحاق " الفلسفة " بـ" علم النفس " بل هنالك من أراد - من أهل التربية - حديثا أن يُدرّس "علم النفس" عوضا عن " الفلسفة " في المدارس الثانوية. !

(7)- ألفرد تارسكي (A.Tarski 1902– 1983) فيلسوف منطقاني أمريكي عضو مدرسة وارسو. له "الدلالات".

(8)- الهرمنيوطيقا Herméneutique اتجاه فلسفي متقدم لـ عمليتّي الكلام و التأويل ؛ مع فهم مفسر مستجد لهما.

(9)- كارل ياسبرس ؛ فلاسفة إنسانيون - منشورات عويدات ، بيروت / باريس . ط1 . 1988 ص.11 .

(10)- الـ جشطالت (Gestalt) : لفظ في اللغة الألمانية يحمل معنى الشكل ؛ أو الصورة الخارجية .

(11)- الـ ليبيدو (libido) :هو مرادف لمعنى " الشّبقية "و هو مفهوم مرتبط عند فرويد بالغريزة بما تشتمل عليه من فطرة و ميولٍ جنسية . و سيجموند فرويد (Sigmund Freud 1856- 1993) هو طبيب عقلاني نمساوي مؤسس مدرسة التحليل النفسي ومبتكر اللاوعي/اللاشعور. كتب بول ريكور (Paul 1913-2005 Ricœur) الفيلسوف الفرنسي الإرادي المعروف - بالمناسبة - رسالة بحثيّة حوله ممكنٌ العودة إليها Essai sure . de la l'interprétation ; Paul Ricœur] Freud Ed- seuil - paris 1955]

(12)- جون واطسون (John Watson 1878- 1958) سايكولوجي أمريكي معروف أسّس علم سلوك النفس .

(13)- هنري برغسون (Henri Bergson 1859- 1941) ؛ حدسيٌ وصاحب مذهب حيوي قوي؛ من مؤلفاته " الضحك - الطاقة الروحية - و- التطوّرالخلاق " .تقدم لنيل درجة جامعيّة عليا من خلال رسالة في فلسفة السيكولوجيا تحديدا عن: Essai sure les donnes immédiates de la conscience

(14)- Henri Bergson ; L'énergie spirituelle - Essai et Conférence - p.u.f paris 9ed; 1967 pp.83.84 " Nous pouvons, nous aventure sans crainte le domaine a peine exploré des réalités psychologiques ".

(15)- Henri Bergson; Ecrits et parole -Textes ressembles par rose mosse- Vol.III puf paris.1ered1959 p.621"*Parce* que question tendait a devenir peuvent philosophique ".

(16)- آخر الفقرة مقتبس عن *زكي نجيب محمود موقف من الميتافيزيقا مطابع الشروق بيروت دط دت ص.51*

(17)- قال بذلك (آلان Allain 1868-1951) . " آلان " هو الاسم المستعار للمفكر والفيلسوف الفرنسي " إميل شارتييه " ذو نزوع تفكيريّة نفسية ذهنية. من مؤلفاته " نسق الفنون والأفكار "ارجع لمجموعة نصوص مختارة :

P.Girard; philo du langage. textes de Platon a Heidegger - Delagrave, paris1976 p.18

(18)- الموقف والمثال الوردان في الفقرة أعلاه منسوبان لـ شبنهاور(A. Schopenhauer 1788- 1860)

(19)- لغويا الاعتباط العقلي ليس فقط في المسميات عند المتخصصين بل قد يمتد لقواعد النحو - فمثلاً -لماذا التأنيث في العربية بالتاء المربوطة غالبا؟! ولماذا علامة الإعراب هي الضمة و ليس شيء آخر؟! . عموما يراجع بالعودة لـ ثنائية " النفس / اللغة " :

- صالح بلعيد، علم النفس اللغوي، نشر دار هومة . الجزائر/ دط 2008 [ص.47... ، وما بعدها]

- حنفي بن عيسى، محاضرات في علم النفس اللغوي د م ج الجزائر ط5 2003 [من ص50 إلى ص 120]

(20)-Emmanuel Mounier , Le Personnalisme , p.u.f paris, 8ed ; 1962 p.53
" La réserve dans l'expression…" !

(21)- Ibid , p.86 *" direction de la transcendance "* .

(22)- جون بياجي - سبق التعريف به - .. لماذا بياجي ؟ ؛ بياجي على أنه مهتم بالتوجهات الجديدة للتربية ومختصٌ رائد في الابستيمولوجيا (التكوينية) باحث في خصائص النمو العقلي و بناءاته الكيفيّة / و واحدٌ من أقطاب علم النفس التعليم والتربية في أوربا؛ عمل على تطوير مناهج النظريات والبحوث في العلوم الإنسانية كفيلسوفٌ يُوجه عنايتنا لعلم النفس المعرفي وللاتجاه الإبستيمولوجي و كأحد السّيكولوجيين المهتمين بتكون الأنساق المعرفية أنظر :bibliographie •
Structuralisme. psychologie et épistémologie, *pour une théorie de la connaissance* .

(23)- محمد وقيدي ؛ الإبستيمولوجيا التكوينية للعلوم ، دار إفريقيا-الشرق . الدار البيضاء دط 2010 ، ص40 .

(24)- غوتلوب فريجة (Gottlob Frege 1818-1925) ؛ رياضي ومنطقي ألماني قال بإمكانية تحليل " البنية " الباطنيّة للقضية ؛ للذات له مباحث في التصور و في المحاكاة الحسابيّة للغة الكلية للفكر الخالص .

(25)- راجع كتابات عن الصّلة بين فلسفة التربية؛ وسيكولوجيا البيداغوجيا بين الفينومولوجيا الموضوعية؛ والسيمولوجيا الذاتية وحتى بين العقلانية اللاديكارتية ؛ واللسانيات النفسية .